اللغة وهياكل الصياغة القديمة غنيمة تراثية في الخطاب النقدي عند محمود أمين العالم.

علي لطرش●

الكلمات المفتاحية:

علاقة اللغة بالهوية القومية- لابديل عن اللغة الأم – التنكر للتراث الأدبي تطرف ومغالاة –إغناء اللغة بالمصطلحات واجب مقدس – هدم الأبنية اللغوية القديمة جناية- التقاليد التعبيرية القديمة ليست عقبات.

الملخص:

إن أمين العالم كما هو معروف ناقد حداثي يرتكز خطابه على الإيديولوجية الاشتراكية ذات الطابع الماركسي، غير أننا نلاحظ أن صلة خطابه بالتراث الأدبي العربي صلة متينة حيث يدعو إلى الرجوع إليه وعدم التفريط فيه لقيمته، ولأن الثقافة سلسلة متواصلة، وتراكم عبر الأجيال والعصور، والتنكر للتراث يعني التنكر للتاريخ ولثقافته، ولذلك يدين رؤية أولئك النقاد والأدباء حتى من ذوي الاتجاه الاجتماعي أو غيرهم الذين تنكروا للتراث في مضمونه الأدبي وفي لغته وصياغته أو استصغروا قيمته باعتباره ثقافة العصور الغابرة، وقد اعتبر ذلك خطأ ناجما عن سوء تقدير هؤلاء لأهمية تراثهم الأدبي الذي مازال حيا لم تنطفئ جذوته وقادرا على الإسهام في بناء مجتمع عربي حداثي عصري تقدمي بما تضمن من رؤى علمية ومعارف ثقافية متنوعة بعضها أدخلت عليه من اللغات الأخرى فارسية وهندية وإغريقية...الخ

Abstract :

Amine El Alem is known as a modern critic whose speech is based on socialist ideology of a Marxist character. However, we note that the relevance of his speech to the Arab literary heritage is a strong one, in which he calls for recourse to it and not compromising its value, and because culture is a continuous chain and accumulation through generations and ages. This Means the denial of history and its culture, and therefore condemns the vision of those critics and writers, even from the social trend or others who deny the heritage in its literary content and language and formulation or underestimated as a culture of ancient times, and was considered a mistake resulting from their underestimation of the importance of their literary heritage, which is still alive, has not extinguished its roots and is

●أستاذ محاضر أ، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر

capable of contributing to the construction of a modern and progressive Arab society, with its diverse scientific visions and cultural knowledge introduced to it from other languages such as Persian and Greek languages.

تعد اللغة جزءا من تراث الأمة الثقافي ، وهي بمثابة المخزن الذي يحفظ فكر الأسلاف ويحميه من الضياع والاندثار، وقد كان للغة العربية شأن كبير في القيام بهذا الدور، فقد كانت الوعاء الذي حافظ على ذخائر فكر الأسلاف، وخاصة التراث الأدبي الذي تمكن أهله بفضل لغتهم من المحافظة عليه ووقايته من الضياع والاندثار ونقله للأجيال اللاحقة لينهلوا منه جيلا بعد جيل ، وقد أولى علماء اللغة والنقاد العرب القدماء أهمية كبرى للغتهم لما لها من دور في الارتباط الروحي والقومي، والمحافظة على ثقافتهم وتراثهم الأدبي، فقد أولوا في نقدهم للنصوص الشعرية شأنا كبيرا للجانب اللغوي، وكان حكمهم في نقدهم للنصوص الشعرية يجنح نحو سلامة اللغة من حيث فصاحتها ورصانتها وقوتها، لان سلامة اللغة عندهم تعني سلامة الذوق العربي، فضلا عن صون نقائها وفصاحتها، وكانت فحولة الشاعر وسمو طبقته تقاس بمدى حذقه للغته وتمكنه منها، وقدرته على نسج الفاظها في أسلوب محكم جميل سليم ، وما ذلك التعظيم من شأن الشعراء السابقين والتهوين من شأن الشعراء المحدثين الذي يلاحظ عند النقاد القدماء أمثال : الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء وابن سلام الجنحي، إلا دليل يقوم على صفاء شعر السابقين الذي لا يرقى إليه شعر المحدثين، إن الدافع الأولي عند هؤلاء النقاد هو الرغبة في المحافظة على سلامة لغتهم والدفاع عنها وحمايتها من خطر اللحن والتحريف.

واعتبارا لأهمية اللغة والدور الكبير الذي تؤديه في حياة الأمة أولى محمود أمين العالم اللغة العربية عناية كبرى، لأنها اللغة " الأم " حافظت على تراث الأمة وعلى شخصيتها رغم الهزات والانكسارات وفترات الضعف الطويلة التي مرت بها وقد اعتبرها غنيمة تراثية مازالت لغة حية قادرة على مسايرة الحياة العصرية، و أداة للتعبير الأدبي الجميل ، غير أنه يتأسف لواقعها، ولما هي عليه الآن حيث تعيش بعض الضعف لعدم إثرائها بالمصطلحات العلمية الجديدة التي تمكنها من احتواء مختلف العلوم ومجاراة الاختراعات، فهي في هذا الجانب تعاني بعض النقص بسبب الإهمال حيث ((ما يزال تدريس العلوم الطبيعية في جامعتنا يتم بلغة أجنبية وما تزال المصطلحات في مختلف العلوم الطبيعية والإنسانية متجانفة متخالفة غير موحدة في تداولها في الثقافة العربية المعاصرة)).(1)

وقد نتج عن افتقار اللغة العربية لبعض المصطلحات العلمية الحديثة – كما يذكر أمين العالم – ((ظواهر سلبية في مفرداتها وبنيتها من تآكل وتهميش وتسطح وافتقار ثقافي،

بل وابتذال كذلك وزحف كلمات وصيغ أجنبية إلى ألسنتنا وكتاباتنا بما لا تمليه ضرورة ثقافية أو تعبيرية أو علمية.)).(2)

ودخول الكلمات والصيغ الأجنبية إلى السنة الناطقين بها بما لا تمليه الضرورة ، كما يبدو ، إنما هو من باب الشعور بالنقص والتباهي والانبهار الزائد بلغة الغير والتشكيك في اللغة " الأم " الشيء الذي قد يؤدي شيئا فشيئا في تقدير أمين العالم غالى الابتعاد عنها واخذ لغة الغير بديلا عنها.

وفي تقدير بعض الدارسين كذلك أن النقص هنا ليس أصلا في بنية اللغة العربية وإنما في إهمالها من أهلها، لأنها سبق وأن أسست حضارة مازالت معالمها قائمة إلى الآن ، وإنما النقص فيها هو عدم إثرائها ببعض الدراسات, و إغنائها بمصطلحات في مختلف العلوم و المخترعات الحديثة، فإن اللغة تقوى وتزدهر بما يضاف لها من مصطلحات في العلوم والمخترعات تمكنها من تأكيد حضورها واحتواء حضارة العصر والمشاركة في تأسيسها، وقد كان هذا الإغناء من عوامل تطورها وازدهارها خلال العصر العباسي بدخول كلمات ومصطلحات فارسية و إغريقية، فشيدت آنذاك حضارة دونها حضارة لغة الآخرين.

وإذ يتحسر أمين العالم من دخول كلمات وصيغ تعبيرية أجنبية على السنة الناطقين باللغة العربية ليس بدافع التعصب و"الشوفينية" أو دعوة لرفض لغة الأخر لأنه كما يعتقد ليس ثمة نقاء لغوي في أي لغة من اللغات الحية، بل هو يؤكد أن اللغة تقوى وتغنى أكثر بما تكتسبه وتضيفه إلى كيانها من كلمات أجنبية حية وظيفية مستمدة من التجارب الحياتية ومن الخبرات الأجنبية ، إنما((هي دعوة نابعة من الإحساس بالخطر لا على ما تتعرض له لغتنا العربية من ظواهر سلبية مترديه فحسب، وإنما على ما يعنيه هذا الخطر من شرخ وتآكل في هويتنا القومية نفسها بما يفضي إلى مضاعفة تخلفنا وتمزقنا القومي وتبعيتنا ويحرمنا من استيعاب حضارة العصر والتواجد الفاعل فيها.)) (3)

ومن الواضح أن أمين العالم يعطي اللغة أبعادا قومية ، لأن الشعب الذي يبتعد عن لغته ويبتعد على شخصيته تتآكل هويته ، ومن ثم فان الشعب أو الأمة التي تحترم نفسها وتأبى التفريط في شخصيتها وثقافتها تتمسك بلغتها وتعمل على تطويرها، ويعتبر أمين العالم تمسك العرب بلغتهم والسعي المستمر لتطويرها بمثابة الواجب القدس.

وقد شغلت اللغة العربية بال الكثير من الكتاب والشعراء منهم حافظ إبراهيم حين يشارك أمين العلم الرأي والشعور نفسه معبرا عن خوفه عليها مشيرا إلى الإجحاف في حقها ومعبرا على لسانها، وهي في حيرة من أمرها تشكو سوء حظها بين أهلها وتعاتبهم، مؤكدا أن اللغة العربية بريئة مما آلت إليه من ضعف وقصور.(4)

وإذ يعطي امين العالم اللغة العربية أبعادا قومية فلأنها لغة الأجداد، والوعاء الذي يحفظ تراث الإسلاف وما دامت للشعوب العربية لغة واحدة فهي أمة واحدة وإن فرقت بينها

الحدود واختلفت بينها الأنظمة السياسية .

ويعد الفيلسوف الألماني " فيخته" ممن أثاروا علاقة اللغة بالقومية وكشف عن أهميتها في المحافظة على وحدة و تماسك الأمة، واعتبرها قوة قد تحقق للأمة ما لا يحققه حد السيف ، وقد خاطب بعض الألمان حين كانوا مجزئين في دويلات ضمن حدود فاصلة قائلا : ((عندما أخاطبكم أنتم المجتمعين أمامي هنا يتوجه ذهني من ورائكم إلى جميع الألمان الذين يتكلمون اللغة الألمانية.))(5)

إن" فيخته " يخاطب جزءا قليلا من الأمة الألمانية المجزأة ، ولكنه في الوقت نفسه يخاطب جميع الألمان، وكأنهم حاضرون أمامه يصغون إليه، لأنه يخاطبهم بلغة – الأم – الألمانية التي صنعت منهم امة واحدة منذ زمن قديم.

ويبدو من قول " فيخته" أن اللغة تعلو فوق الحدود الجغرافية والنظم السياسية المختلفة ، وإنما العائق هو اختلاف اللغة، ومادامت للألمان لغتهم فهم أمة واحدة رغم عائق الحدود السياسية والجغرافية، ولعل ذلك ما عناه أمين العالم أيضا في حرصه على اللغة العربية.

- **رأي أمين العالم في مدى صلاحية الهياكل التعبيرية القديمة:**

أردنا مما عرضنا من آراء إثبات عامل اللغة الذي أثاره (أمين العالم) كأداة للعمل والمحافظة على وحدة الأمة وتماسك شخصيتها وشحن أبنائها بشعور الانتماء القومي والتجاذب العاطفي والتمازج الثقافي، ويدخل منظور أمين العالم هذا إلى اللغة في الإطار العام. و نواصل عرض موقفه من اللغة في الحقل الأدبي وهو ما يهمنا أكثر في هذا الموضوع.

إن اللغة العربية في تقديره كانت ومازالت لغة الإبداع والتعبير الأدبي الجميل ، ويدين من يهون من فعاليتها وقدراتها في هذا المجال، ويرفض دعوة حتى بعض من ذوي التوجه الاشتراكي الناقمين على الإقطاعية والبرجوازية الذين غيبوا تراثهم الأدبي في شكله ومضمونه وراحوا يدعون إلى إحداث ثورة في لغة الكتابة والتخلي عن الأنماط القديمة باعتبارها صارت غير ذات جدوى لا تواكب العصر و الأحداث، وكما وقعت في تصورهم ثورات وتغيرات في الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية يقتضي أن يحدث مثل ذلك في اللغة كذلك، وهذا الاعتقاد في نظر أمين العالم زائف غير سليم يدخل في باب التعميم.

ويصف عبد السلام هارون في هذا السياق أن هذا الاعتقاد فيه تحامل وتشويه للتراث الأدبي، وهي دعوة مغرضة سواء صدرت عن قصد أو عن جهل تؤدي إلى التهوين من شأنه وتحقيره ورميه بالضعف، ورمي لغته بالعجز عن مطاوعة العصر وما تقتضيه الحياة المعاصرة ، ويصف هؤلاء بضعاف النفوس الذين يجهلون حقيقة تراثهم الأدبي.(6)

ومثل ذلك الاعتقاد عند أمين العالم حكم ظالم وانحراف، بل جناية تاريخية صادر

عن تهور ووعي زائف مجانب للحقيقة و حقائق التاريخ ، وخارج عن صيرورة المجتمع البشري يعبر عن ذلك فيقول : (إن الدعوة إلى تهديم الهياكل الشكلية والمضمونية في الأدب تهديما مطلقا هي دعوة إلى الانفصال و الانقطاع عن المجتمع الإنساني وليست دعوة إلى الثورة عن نظامه الرجعي، لأنها دعوة غير تاريخية وإن زينت بزي الثورة).(7)

وينطلق أصحاب هذه الأصوات كما يصف أمين العالم من معادلة ترى ضرورة تخطي عهد البرجوازية في الأدب و إحداث ثورة في بنية المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك يقتضي إيجاد أدب ثوري يسهم في تحقيق ذلك، ومن ثم أصبحت الثورة في الأدب تعني عندهم هدم الأبنية اللغوية القديمة الحالية ، لأنها تتضمن مفاهيم الطبقية و البرجوازية لتحل محلها مفاهيم وقيم بديلة تصبو إلى إيجاد مجتمع جديد يقوم على العدالة والإنصاف، وهي معادلة كما يصف أمين العالم باطلة شكلية ميكانيكية،ويستخلص قائلا: ((لو كان اعتقاد هؤلاء سليما لاقتضى الأمر رفض مثلا التنظيمات النقابية للعمال ورفض احتجاجاتهم وإضراباتهم، وهي وسيلة تحقيق حقوقهم، لأنها من أنظمة النظام البرجوازي، ويقتضي الأمر كذلك رفض النقود، لأنها مصدر الاستغلال،ورفض المنطق العقلي ، لأنه نتاج الفكر البرجوازي، إلى غير ذلك من وسائل الحياة والأنظمة البرجوازية القديمة العديدة مما يفضي إلى بتر سلسلة الحياة والانقطاع عن صيرورة التاريخ الإنساني).(8)

إن الأدب الثوري يسعى حقيقية إلى إزالة الاستبداد والاستغلال، وكل صور التخلف والاهانة، ويسعى إلى إقامة علاقات اجتماعية وإنتاجية وسياسية تخلو من الظلم،ولكن لا يكون ذلك برفض مضامين الأدب القديم أو صياغته ونعت لغته بالضعف والقصور، إن هذا سيؤدي إلى الاغتراب والابتعاد عن روح الأمة وعن تراثها الأدبي.

يقول أمين العالم مخاطبا من يعتقد بهذا قائلا : ((و الدعوة التي يتبناها بعض أدبائنا ومفكرينا في هذه الأيام، باسم الثورة الأدبية داعين بها إلى تحطيم كل بنية لغوية قديمة بما تتضمنه من دلالات وتصورات وقيم لا تحقق أدبا ثوريا بالمعنى الحقيقي، وإنما تحقق أدبا منعزلا مغتربا متعاليا عن واقعنا ومتطلباته الثورية، إنه لا يفجر رؤية ثورية إنما شعورا زائفا بثورة زائفة)).(9)

وحتى المدرسة الواقعية الاشتراكية التي ينضوي تحت ظلالها بعض من هؤلاء الأدباء، والتي ترتكز على مبادئ إزالة الظلم والإقطاع وتحقيق نظام العدالة ترفض ذلك لأن الأدب جزء من حركة التاريخ وهو تراكم متواصل، يقول ثانية: ((والواقعية الاشتراكية ترفض العبودية الملطقة لتقاليد الماضي بكل تفاصيلها, ولكنها كذلك ترفض إنكار الماضي بكل تقاليده)).(10)

فليست كل بنية لغوية في نظر العالم قديمة ولا كل مضمون أدبي قديم يتضمن معنى التخلف والرجعية وقيم البرجوازية، ومن ثم ينبغي رفضه والثورة عليه،فهناك من

الأعمال ما صيغت بصيغ واشكال قديمة، وهي تفيض بقيم ودلالات إنسانية تقدمية حديثة (11) ، وحين نمد البصر إلى التراث الشعري القديم نجد من الشعراء الذين وصفوا مظاهر الظلم والفساد والتباين بين الناس في الحق و في الحياة وبصور فنية ناقمة قل ما نجد مثلها عند المعاصرين.

إن اللغة ليست عائقا، لأن قيمة العمل الأدبي في دلالته سواء كانت يقول أمين العالم : ((وسيلتنا إلى ذلك أشكال قديمة في التعبير أو أشكال جديدة مضامين جديدة أو مضامين قديمة.)) (12)

وخلاصة رأيه هي ((ليست المألوفات الصياغية والتقاليد التعبيرية أو القيم الفكرية والوجدانية على إطلاقها هي عقبات النضال الثوري، عقبات التجديد الأدبي بحيث يكون التمرد عليها والرفض المطلق لها الانقطاع عنا هو طريق الثورة في الأدب والحياة.)) (13)

إن ما يثيره أمين العالم هنا شبيه بما وقع في روسيا في أعقاب ثورة 1917 حين تعالت أصوات من أفواه العديد من الأدباء والمفكرين والفنانين تدعو إلى دفن التراث القديم وخلق أدب جديد بروليتاري ثوري يعبر عن العمال والفلاحين يختلف في أشكاله ومضامينه عن القديم،وقد وقف لينين ضد هذا المطلب واعتبره موقفا تعسفيا وبترا لتاريخ الثقافة البشرية،وأوضح أنه لا يمكن خلق ثقافة بورليتارية من العدم، لأن مفهوم الثقافة الحقيقية هي كل الثقافة التي أنتجها عقل البشرية عبر العصور، وأن معرفة هذه الثقافة معرفة علمية واعية ودراستها بصورة انتقاديه وحدهما الكفيلان ببناء الثقافة البروليتارية.

ويقول في رده على هذه الأصوات: ((إن الثقافة لم تنطلق من مكان مجهول، ولم يخترعها الناس الذين يقولون عن أنفسهم أنهم أخصائيون في ميدان الثقافة البروليتارية،كل ذلك سخف وهراء، ينبغي أن تكون الثقافة البروليتارية التطور المنطقي بمجمل المعارف التي صاغتها الإنسانية تحت نير المجتمع الرأسمالي، ومجتمع الملاكين العقاريين والمجتمع الدواويني.

إن الأهم في الفن ما كان جميلا سواء كان قديما أو جديدا لذا دعا للمحافظة على كل تراث جميل قائلا ((لماذا ندير ظهورنا لما هو جميل حقا، ونهمله كنقطة بداية لتطور ابعد، لا لشيء إلا لأنه قديم؟ لماذا نعبد الجديد كما لو كان الها لا لشيء إلا لأنه جديد)) (15)

إن العقبات في العمل الأدبي ليست في اللغة كمفردات أو عبارات إنما في دقة دلالتها على مدلولاتها ونسج عباراتها نسجا فنيا جميلا يحرك المشاعر، وإن ذلك لا يتحقق إلا بعناية الأديب بعمله وحذقه للغته وبصيرته بصياغة فنه.

وقد تحدث عبد القاهر الجرجاني عن دور الكلمة في حديثه عن عملية النظم قائلا: ((إن الكلمة المفردة لا قيمة لها قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي يفيد بها الكلام غرضا من أغراضه، والألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي

مفردة، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر.)) (16)

ونحن نعلل دفاع أمين العالم عن اللغة العربية والتأكيد على استمرار فعالية هياكلها القديمة بأن فيه شيئا من رد الفعل ضد دعوات كانت تسعى إلى إدخال العامية في الكتابة الأدبية، وهذا يتعارض مع مبدأ القومية العربية الذي كان ضمن هواجسه، والذي كان وراء دفاعه عن اللغة الفصحى وتفضيلها عن العامية فهذا ((التفضيل إنما كان يرتبط بدور الفصحى في تدعيم القومية العربية مما يفضي بدوره إلى التهيئة لقيام وحدة عربية.)) (17)

وقد شغلت القومية العربية حيزا كبيرا في إيديولوجية التيار النقدي الاجتماعي بالخصوص وفي خطابه النقدي نتيجة عوامل عدة منها إفرازات الحرب العالمية الثانية،وضياع فلسطين، ثم أثار ثورة يوليو 1952 المصرية حيث أكد عبد الناصر قائد هذه الثورة أن القومية العربية تعد هدفا أساسيا وبعدا سياسيا رئيسيا لمصر(18) ومن ثم كانت محاولات السلطة الناصرية تحويل حلم الوحدة العربية إلى حقيقة واقعة وهي أكثر العوامل التي دفعت إلى بروز مفهوم القومية في خطاب هؤلاء النقاد.

الهوامش :

1-محمود أمين العالم، لغتنا العربية في معركة الحضارة ، سلسلة قضايا فكرية،الكتاب السابع عشر والثامن عشر، يصدر عن قضايا فكرية للنشر والتوزيع، مايو 1997، القاهرة ، مصر، ص 11

2-محمود أمين العالم، المصدر نفسه والصفحة

3-محمود أمين العالم ، لغتنا العربية في معركة الحضارة "سلسلة قضايا فكرية " الكتاب السابع عشر والثامن عشر، ماي1997، ص 11

4-ينظر على سبيل المثال محمد حافظ إبراهيم، ديوان حافز إبراهيم من صباه إلى وفاته، مكتبة الهلال ، مصر 1935، ص 73-.74

5-نقلا عن مجلة " المدرسة" إصدار وزارة التربية والتعليم الأساسي، عدد 3، ماي 1982، ص 8.

6- محمود أمين العالم، ملاحظات في الأدب والثورة مجلة – الأقلام -عدد12

، 1973، تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بغداد العراق، ص 11

7-ينظر محمود العالم، المصدر نفسه والصفحة

8- محمود أمين العالم، ملاحظات في الأدب والثورة، مجلة ' الأقلام " ع12، عام 1973، ص10

9- محمود أمين العالم، المصدر السابق والصفحة ذاتها.

10-ينظر محمود أمين العالم ، المصدر السابق، ص .10

11-محمود أمين العالم ، المصدر السابق والصفحة 11

12 محمود أمين العالم، المصدر السابق والصفحة ذاتها.

13- محمود أمين العالم، المصدر السابق والصفحة ذاتها.

14- مختارات لينين, دار التقدم , موسكو جزء 4 , ص.167

15- القديم و الجديد و الجيد عند لينين ، مجلة ' الهلال ' المصرية ، مارس 1970. 16 - عبد القادر الجرجاني، نقلا عن احمد هيكل، التراث العربي دراسات جمعية الأدباء العرب، المطبعة العالمية، القاهرة، مصر ، د ، ت ، ص .93

17-سامي سليمان أحمد، الخطاب النقدي والايدولوجيا، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، عام 2002، ص354.

18- ينظر سامي سليمان المرجع نفسه والصفحة .351